حَالُ الإِنْسَانِ عِنْدَ حُلُوْلِ الْمُصِيْبَةِ

جمع وإعداد

أَبِيْ مُعَاذ ظَافِرُ بْنُ حَسَنْ آل جَبْعَان

dhaferhasan@gawab.com
dhaferhasan@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الإنسان عند حلول المصيبة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن العبد في هذه الدنيا معرض لصنوف من البلاء، والاختبار، وما ذلك إلا ليعلم الله-تعالى- من عبده صبره ورضاه؛ وحسن قبوله لحكم ربه وأمر مولاه، قال الله تعالى:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[(١)].

والإنسان عندما يصاب بمصيبة، فإن له أحوالاً في تقبل تلك المصيبة، إما بالعجز والجزع، وإما بالصبر وحبس النفس عن الجزع، وإما بالرضا، وإما بالشكر.

قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) - رحمه الله تعالى -:(والمصائب التي تحل بالعبد، وليس له حيلة في دفعها، كموت من يعزُّ عليه، وسرقة ماله، ومرضه، ونحو ذلك، فإن للعبد فيها أربع مقامات:

أحدها: مقام العجز، وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله، وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضى وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضى؛ فإنه يشهدُ البليةَ نعمة، فيشكر المُبْتَلي عليها)[(٢)].

وقد علق على هذه المقامات الأربع الشيخ محمد بن عثيمين[(٣)] - رحمه الله تعالى - فقال: للإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات:

الحال الأول: أن يتسخط.

الحال الثاني: أن يصبر.

الحال الثالث: أن يرضى.

الحال الرابع: أن يشكر.

هذه أربع حالات للإنسان عندما يصاب بالمصيبة:

أما الحال الأول: أن يتسخط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه.

ـــ فتسخط القلب أن يكون في قلبه شيء على ربه عَجَلَّ من السُّخط والشره على الله - تعالى - والعياذ بالله وما أشبهه، ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة.

ـــ وأما باللسان فأن يدعو بالويل والثبور، يا ويلاه! يا ثبوراه! وأن يسب الدهر فيــؤذي الله عَجَلَّ وما أشبهه.

ـــ وأما التسخط بالجوارح مثل: أن يلطم خده، أو يصفع رأسه، أو ينتف شعره، أو يــشق ثوبه، وما أشبهه ذلك.

هذا حال السخط حال الهلعين الذين حرموا من الثواب، ولم ينجوا من المصيبة بــل الــذين اكتسبوا الإثم؛ فصار عندهم مصيبتان: مصيبة في الدين بالسخط، ومصيبة في الدنيا لما أتاهم ممَّــا يؤلمهم.

أما الحال الثانية: فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه؛ هو يكره المصيبة ولا يحبها، ولا يحب إن وقعت، لكن يصبّر نفسه؛ لا يتحدث باللسان بما يسخط الله، ولا يفعل بجوارحه ما يغــضب الله تعالى، ولا يكون في قلبه على الله شيءٌ أبداً؛ صابر لكنه كاره لها.

والحال الثالثة: الرِّضى بأن يكون الإنسان منشرحاً صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تاماً، وكأنه لم يصب بها.

والحال الرابعة: الشُكر فيشكر الله – تعالى - عليها، وكان الرسول ﷺ إذا رأى مــا يكــره قال:"الحمد لله على كل حال"[٤].

فيشكر الله من أجل أن يُرتب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه.

مسألة: ما ينبغي لمن بلغته المصيبة أن يفعل.

ينبغي لمن بلغته مصيبة، أيَّاً كانت هذه المصيبة أمور:

أ- الصبر؛ فيسن الصبر على المصيبة، ويجب منه ما يمنعه عن المحرم[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٧٢٨هـ) - رحمه الله تعالى- :(والصبر واجب باتفاق العلماء)[٦].

قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) - رحمه الله تعالى-:(والصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر)[٧].

والصبر هو: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش[٨].

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[٩].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال:"اتقي الله واصبري" قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه! فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى"[١٠].

قال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ) - رحمه الله تعالى - عند قوله ﷺ:"إنّما الصبر عند الصّدمَة الأولى" المعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتَب عليه الأَجر؛ قال الخطابي: المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأَة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه مع الأيام يسلو؛ وحكى الخطابي عن غيره أن المرء لا يُؤجر على المصيبة لأنّها ليست من صنعه، وإنَما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره؛ وقال ابن بطّال: أراد أن لا يجتمع عليها مصيبة الهلاك وفقد الأَجر)[١١].

قال الإمام الموفق ابن قدامة (ت٦٢٠هـ) - رحمه الله تعالى -:(وينبغي للمصاب أن يستعين بالله تعالى، ويتعزى بعزائه، ويمتثل أمره في الاستعانة بالصبر والصلاة، ويَتَنَجَّز ما وعد الله الصابرين، قال الله ﷻ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾، ويسترجع)[١٢].

ب- الرضا بالقضاء والقدر والتسليم التام لله ﷻ، وهذه الصفة هي من أعظم صفات المؤمن المتوكل على الله، المصدق بموعود الله، الراضي بحكم الله، وبما قضاه الله - تعالى - وقدره، بل الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، الواردة في حديث أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الطويل وفيه" قال: فأخبرني عن الإيمان، قال ﷺ: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"[١٣].

ج- قول (إنا لله وإنا إليه راجعون)

وذلك لما جاء في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[١٤].

وله أن يزيد "اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها"، لما جاء من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها " قالت: فلما توفي أبو سلمة رضي الله عنه قلت: ومن خيرٌ من أبي سلمة؟ صاحب رسول الله ﷺ، ثم عزم الله علي فقلتها، فما الخلف؟! قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ ومن خير من رسول الله ﷺ[١٥].

د- أن تعلم أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان؛ لذا فهي مليئة بالمصائب، والأكدار، والأحزان، كما قال ربنا الرحمن:﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ﴾، وقال ﷻ:﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ ﴾[١٦].

هـ- تذكر أن العبد وأهله وماله لله ﷻ فله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، قال لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع   ولابد يوماً أن ترد الودائع

و- الاستعانة على المصيبة بالصلاة، قال الله تعالى:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾[١٧]؛وقد "كان ﷺ إذا حزبه أمر صلى"[١٨]،ومعنى حزبه: أي نزل به أمرٌ مهم، أو أصابه غم.

وهذا حال المؤمن الصادق، الذي لا يخطر على قلبه في وقت المحن والشدائد، إلا تذكر الله ﷻ، لأنه الذي بيده مفاتيح الفرج.

ولما أخبر ابن عباس - رضي الله عنهما - بوفاة أحد إخوانه استرجع وصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام وهو يقول:﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[١٩].

ز- تذكر ثواب المصائب، والصبر عليها، وإليك شيئاً منه:

١- دخول الجنة: قال الله تعالى:﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[٢٠].

وقال ﷺ:(يقول الله ﷻ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت[٢١] صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة)[٢٢].وصفيه هو حبيبه المصافي كالولد، والأخ، وكل من يحبه الإنسان، والمراد بقوله ﷻ (ثم احتسبه): أي صبر على فقده راجياً الأجر من الله تعالى على ذلك[٢٣].

٢- الصابرون يوفون أجورهم بغير حساب. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠ ﴾[٢٤]، قال الأوزاعي:(ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفاً)[٢٥].

٣- معية الله للصابرين، وهي المعية الخاصة المقتضية للمعونة والنصرة والتوفيق، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢٦].

٤- محبة الله للصابرين، قال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢٧].

٥- تكفير السيئات لمن صبر على ما يصيبه في حال الدنيا، كبر المصاب أم صغر؛ قال ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه:" ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، ولا همٍ، ولا حزن، ولا أذىً، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه"[٢٨]، والنصب التعب، والوصب: المرض، وقيل هو المرض اللازم[٢٩].

قال الإمام القرافي(ت٦٨٤هـ) - رحمه الله تعالى -:(المصائب كفارات جزماً سواءً اقترن بها الرضا أم لا، لكن إن اقتران بها الرضا عظم التكفير وإلا قل)[٣٠].

وقال ﷺ :"ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة)[٣١].

٦- حصول الصلوات، والرحمة، والهداية من الله ـــ تعالى ـــ للعبد الصابر؛ قال الله ﷻ:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[٣٢].

٧- رفع مترلة المصاب؛ قال ﷺ:" إن العبد إذا سبقت له من الله مترلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبّره على ذلك حتى يبلغه المترلة التي سبقت له من الله تعالى"(٣٣).

---

(١) [سورة الملك آية:٢].

(٢) عدة الصابرين (ص:٨١).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/١٢١-١٢٢)، وانظر الشرح الممتع للشيخ أيضاً(٥/٤٩٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب: باب فضل الحامدين (٢/١٢٥٠رقم:٣٨٠٣)، قال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٤٧٢رقم:٢٦٥).

(٥) الفروع (٢/٢٢٣).

(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان(ص:٢٦٥).

(٧) مدارج السالكين(٢/١٥٨) في مترلة الصبر.

(٨) مدارج السالكين(٢/١٦٢).

(٩) [سورة البقرة آية: ١٥٥-١٥٧].

(١٠) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب زيارة القبور(الفتح٣/٤٩٢-٤٩٣برقم١٢٨٣)، وباب الصبر عند الصدمة الأولى(الفتح٣/٥٢٣برقم ١٣٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنائز: باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى(٢/٦٣٧برقم٩٢٦).

(١١) فتح الباري (٣/٤٩٤-٤٩٥).

(١٢) المغني(٣/٤٩٥).

(١٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان(١/٣٩برقم:٩).

(١٤) [سورة البقرة آية: ١٥٦].

(١٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة (٢/٦٣٢-٦٣٣ برقم:٩١٨).

(١٦) [سورة البلد آية:٤].

(١٧) [سورة البقرة آية:٤٥].

(١٨) أخرجه الإمام أحمد(١/٢٠٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة: باب وقت قيام النبي ﷺ للصلاة(٢/٥٠برقم:١٣١٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح(٣/٥٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود(١/٣٦١ برقم:١٣١٩).

(١٩) فتح الباري (٣/٥٢٤)، قال الحافظ ابن حجر أخرجه الطبراني بإسناد حسن؛ وانظر الفروع لابن مفلح(٢/٢٢٣).

(٢٠) [سورة الرعد آية:٢٣-٢٤].

(٢١) المراد قبض روحه بالموت(فتح الباري١٣/٢٠).

(٢٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق: باب العمل الذي يبتغي به وجه الله تعالى(فتح١٣/١٨برقم٦٤٢٤).

(٢٣) فتح الباري(١٣/٢٠).

(٢٤) [سورة الزمر آية:١٠].

(٢٥) تفسير ابن كثير(٤/٥٢).

(٢٦) [سورة البقرة آية:١٥٣].

(٢٧) [سورة آل عمران آية:١٤٦].

(٢٨) أخرجه البخاري في كتاب المرضى باب:ما جاء في كفارة المرض (الفتح ١١/٢٣٩برقم٥٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب البر واصلة والآداب: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها(٤/١٩٩٠برقم:٢٥٧٢).

(٢٩) فتح الباري(١١/٢٤٢-٢٤٣).

(٣٠) فتح الباري(١١/٢٤٢).

(٣١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد: باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال عنه : حديث حسن صحيح(٤/٦٠٢برقم:٢٣٩٩)، وصححه الألباني في الصحيحة(٥/٣٤٩برقم: ٢٢٨٠)، وفي سنن الترمذي أيضاً (ص:٥٤١برقم:٢٣٩٩الطبعة الجديدة عناية الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان).

(٣٢) [سورة البقرة آية:١٥٥-١٥٧].

(٣٣) أخرجه أحمد (٥/٢٧٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز: باب الأمراض المكفرة للذنوب (٣/٢٣٨ برقم٣٠٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٦القسم الأول/١٨٩برقم٢٥٩٩)، وفي صحيح أبي داود(٢/٢٧١برقم٣٠٩٠).